الدين والفلسفة

الخصومة بينهما في المغرب

لمحمد يوسف موسى

« بعد أن تكلمنا في الكلمة الثانية عن مظاهر الخصومة بين الدين والفلسفة في الشرق الاسلامي ، نتكلم اليوم على مظاهر هذه الخصومة في المغرب »

نستطيع القول بأن المملكة الاسلامية في المغرب والأندلس ، وقد تعاقبت عليها دول مختلفة ، كانت مصداقاً لبعض قوانين ابن خلدون الاجتماعية . ذلك بأن هذا الفيلسوف الاجتماعي استقرأ الأطوار التي تمر بها الأمة من الامم ، من لدن قيامها الى انقراضها ، وجعل الطور الثاني هو « طور الاستبداد ، أي استبداد الأمير بقومه والانفراد دونهم بالملك ، وكبحهم من التطاول للمساهمة والمشاركة ، ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والأنصار » (١) كما يقرر في موضع آخر « ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ، وأن السبب في ذلك انه متى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت منه إلى ما وراء المعاش من التصرف في حاجة الانسان وهي العلوم والصنائع » (٢)

من أجل ذلك ليس عجباً أن نرى الدولة الاموية التي أسسها صقر قريش بالاندلس ، تعمد قبل كل شيء إلى توطيد سلطانها فيما اقتطعته من بلاد الدولة العباسية ، ويشغلها هذا التوسع في بسط النفوذ والسلطان عن العلوم والفلسفة ، حاشا ما كان خاصاً بكتاب الله وسنة رسوله والفقه واللغة ، وما إلى ذلك من العلوم الاسلامية الاصيلة التي لا غنى عنها . ولهذا نجد صاعداً الأندلسي المتوفي سنة ٤٦٢ هـ يذكر « أن هذه البلاد ظلت بعد الفتح لا يعني أهلها بشيء من العلوم إلا علوم الشريعة وعلم اللغة ، إلى أن توطد الملك لبني أمية بعد عهد أهلها بالفتنة ، فتحرك ذوو الهمم لطلب العلوم » (٣) . ونعتقد انه من الواضح أن المراد بالعلوم التي تحرك هؤلاء لطلبها العلوم ، التي من جنس العلوم القديمة الفلسفية التي لم يكن للعرب إلف بها

---

(١) المقدمة ص ١٣٨ (٢) نفسه ص ٣٤٤ (٣) طبقات الامم ، طبع مصر ، ص ٧١

ثم كان أن أخذت العلوم الفلسفية تنشط من عقالها وتأخذ مكانتها الحقيقة بها في عهد الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ، الذي كان له فخر افتتاح هذه الدراسات العالية وتمهيد سبلها للراغبين ، بما كان يجمع من الكتب والمؤلفات . وكان يدفع هذه الحركة العلمية الأمام التسامح الذي لاتكاد العصور الحديثة يعرف لهُ نظيراً كما يقول « رينان — Renan » الفيلسوف الفرنسي المعروف « إذ كان هناك مسيحيون ويهود ومسلمون يتكلمون لغة واحدة ويتناشدون شعراً واحداً ، ويتعاونون على الدراسات العلمية والأدبية . لقد امّحت كل الحواجز التي كانت تفصل الناس ، وصار الجميع يتعاونون في إقامة صرح التمدن المشترك ، كما غدت مساجد قرطبة بتلاميذها الذين يعدون بالآلاف مراكز الدراسات العلمية والفلسفية »[1]

لكن العامل السياسي ظهر — مضافاً إلى عوامل أخرى — فقضى على هذه النهضة في مستهل أمرها . إذ توفي الحكم وتولى ابنه هشام المؤيد ، وكان غلاماً حَدَثاً ، فاستبد به والملك الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ، وعمل هذا الحاجب على استمالة العامة والفقهاء فعمد الى خزائن الحكم العلمية فأفرز بمحضر من أهل العلم والدين مافيها من كتب علوم الأوائل القديمة ماعدا الطب والحساب وأمر باعدامها : فأحرق بعضها ، وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغاير . فعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس ، وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم « إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بألسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة ومظنوناً به الالحاد في الشريعة »[2]

ومما يؤكد ما نراه من أن الحاجب المنصور اجترح ما اجترح مدفوعاً بعامل سياسي ، مايذكره المقري نقلاً عن ابن سعيد ، إذ يقول بياناً لحالة فنون العلم لدى أهل الاندلس ، « ان كل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلاّ الفلسفة والتنجيم ، فان لها حظاً عند خواصهم ولا يُستظاهر بها خوف العامة . فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فان زل في شبهة رجموه أو حرّقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً للعامة . وكثيراً ما كان يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه »[3]

---

(١) ابن رشد وفلسفته ، بالفرنسية ، ص ؛

(٢) طبقات الامم ص ٧٦ . ٣) نفح الطيب ، لنشر دوزي ، ج ١ ص ١٣٦

ولم يكتف المنصور بما فعل ، بل أصدر مرسوما جرّم به الاشتغال بالفلسفة فصار الذين يعنون بها يستخفون بدراساتهم ، كما صار الذين استمروا يحملون شعلة التفلسف عرضة للمحن والأرزاء . مصداق هذا حياة متفلسفي ذلك العصر ومنهم ابن باجه المتوفي سنة ٥٣٣ هـ ومعاصره مالك بن وهب الاشبيلي

بل تعدّت المحنة الفلسفة الى علم الكلام في عصر أسرة المرابطين ، فصار قبيحاً وبدعة في الدين بما وسوس به بعض الفقهاء الى علي بن يوسف بن تاشفين المتوفي سنة ٥٣٧ هـ فشدد في نبذه متوعداً من عُثر عنده على شيء من كتبه حتى انه لما دخلت مؤلفات حجة الاسلام الغزالي أمر باحراقها وتوعد بسفك الدم من وجد لديه شيء منها (١)

***

وإذا تركنا أسرة المرابطين الى دولة الموحدين التي خلفتها ، نجد فيها من عُرف بتشجيع الفلاسفة ومن عمل على اضطهادهم ، حتى ان ابن رشد انكر اشتغاله بالفلسفة لما سأله امير المؤمنين أبو يعقوب عن رأي الفلاسفة في قدم السماء ، على نصرته للفلاسفة (٢)

وبالرغم مما رأيناه من كراهة الفلسفة واضطهاد الفلاسفة والمتفلسفين بالمغرب والاندلس لايسع الباحث الآ ان يقرر أن هذه الاضطهادات زادت الفلسفة والفكر الحر أنصاراً مستخفين تارة ومجاهدين أخرى وكان ذلك لعوامل مختلفة

ونعتقد انهُ صار من السهل الآن معرفة البواعث التي دفعت رجال الدين ، او نفراً منهم على الأقل ، إلى معاداة الفلسفة و علم الكلام الآن في ذلك العصر . هذه البواعث قد يدخل فيها الجهل والتعصب والسياسة والحسد احياناً ، ولكن من الحق ان نقرر انهُ في كثير من الحالات كان الباعث على ما امتحن به الفلاسفة ومن اليهم عدم صلاحهم للنظر فيها او انحرافهم في شيء من آرائهم عن بعض ماجاء به الدين ، إما حقاً وإما جهلا

وإلاّ فكيف نفسر ان المنصور ابا يوسف يعقوب (ولي سنة ٥٨٠ هـ) لم ير بأساً في اشتغال الحفيد أبي بكر بن زهر بالفلسفة ، وقد حرم الاشتغال بها ، لما يعلمه — كما قال — من متانة دينه وخلقه (٣) وكيف ان ابن زهر هذا ابى بشدة على اثنين من تلاميذه ان يشتغلان بشيء منها قبل ان يتقنا علوم الدين ويتعودا القيام بالشعائر الدينية ؟ (٤)

ومهما يكن من البواعث العامة والخاصة التي دفعت إلى اضطهاد الفلسفة والفلاسفة ، فانهُ بنكبة ابن رشد سنة ٥٩٥ هـ فقدت الفلسفة الاسلامية آخر نصير وممثل لها من المسلمين

(١) المعجب المراكشي ، نشر دوزي ، ص ١٢٣ — ١٧٥ (٢) نفسه ص ١٧٥ (٣) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٦٩ (٤) نفسه ص ٦٩ — ٧٠

في الشرق والغرب ، وتضافرت عوامل مختلفة على اماتة روح الابتكار وسيادة روح التفكير

* * *

وأخيراً ، هل يبيح الدين ما كان من اضطهاد كثير من رجاله للفلسفة والتفكير الحر ؟ وهل كان من الخير أن تسوء العلاقة بين رجال الدين والفلسفة ، كما رأينا ؟

١ — مهما تكن البواعث التي صدر عنها بعض رجال الدين في عدائهم للفلسفة ومهما تكن مكانتهم وشهرتهم في التاريخ ، فانه مما لا ريب فيه في رأينا أن الدين الاسلامي لا يبيح كل ما امتحن به هؤلاء الفلاسفة ومن اليهم من اضطهاد وتنكيل . الدين الذي يأمر كتابه ألاّ نجادل أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن ، كما أمر موسى وهرون أن يلينا القول لفرعون لعله يتذكر أو يخشى ، الدين الذي حث على النظر في العالم ظاهره وباطنه ، لنعرفه فنشكر من سخره لنا ؟ الدين الذي يقرر كتابه انهُ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ الدين الذي هذا شأنه ، لا يرضى ما صنعه رجاله بالفلسفة

نفهم أن تحترب الافكار وأن تقرع الحجة الحجة ولكن لا نفهم أن تُنتضى السيوف وتسيل الدماء لتأييد رأي قد يكون خاطئاً ! ربما كان من الفلاسفة من ركب رأسه ، وذهب الى ما لا يتفق وأصول الدين ، هؤلاء جزاؤهم أن يؤدبوا بأدب الشرع ، ولكن منهم من حسنت نيته فاجتهد وأصاب أو أخطأ ، فكيف يجوّز مسلم لنفسه أن يرميه بالالحاد وأن يحرّض على تعذيبه وعلى قتله أحياناً

٢ — يتبين من هذا الذي قدمنا انهُ لم يكن من الخير لأحد من الطائفتين أن تسوء العلاقة بين رجال الدين ورجال الفلسفة كما رأينا . لقد حفر هذا الخلاف — بل العداء — بين الفريقين هوّة ظلت فاصلاً بينهما دهراً طويلا ، وأساء كل من المعسكرين بالآخر الظنون ، فرمى رجال الدين الفلاسفة بالالحاد ، وجازاهم هؤلاء شرّاً بشرّ فرموهم بالجمود وعدم فهم الدين ! وكان من هذا وذاك أن حُرم الدين الانتفاع بجهود كثير من أبنائه المفكرين ، وان تحامى العامة الفلاسفة ، فانكمش الفكر الحر وأخلى الطريق للجهل والتقليد

ومن المؤلم أشد الالم انهُ لا يزال لذلك الموقف آثاره في هذا العصر الذي نعيش فيه إذ يمثل أحد المعسكرين بعض رجال الأزهر ويمثل المعسكر الآخر بعض رجال الجامعة . وإذ ثار الخلاف واشتد في حالات كثيرة — كلنا يذكرها — على حساب العلم والتفكير ! بل لعلنا لا نخطىء اذا قلنا انهُ من السهل أن نجد ممثلين لهذين المعسكرين في الازهر نفسه

علم الله إنهُ لولا داء الحسد لسلم تاريخ الاسلام مما ذخر بهِ تاريخ الأديان من اضطهاد التفكير الحر ورجاله . ذلك بأنهُ — كما يقول الشيخ محمد عبده — « اذا عدّ عادّ بعض

رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام ، وقتلهم حالات الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين ، فما عليه إلاّ أن ينظر في أحوالهم فيقف لأول وهلة على ان الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم ، وانما نجد الحسد هو العامل الاول في ذلك كله والدين آلة له ، ولهذا لا تجد مثل ذلك الأذى يقع إلاّ على قاضي قضاة كابن رشد أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لإيذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لاهلاك بعضهم بعضاً ، كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ[1]

هذا ، وقد تم ما أردنا من عرض العلاقة بين رجال الدين والفلسفة ومنه وضح أن الفلسفة والفلاسفة كانوا أحسن حظاً في الشرق منهم في المغرب ، فما تعليل هذا ؟

* * *

لا نعرف أحداً من مفكري الشرق وفلاسفته عني بتخصيص كتاب أو رسالة للتوفيق بين الدين والفلسفة وان كانوا عالجوا هذه المسألة في اثناء كتاباتهم ، على حين صنع ذلك فلاسفة المغرب ، كما يتبيّن من « حي بن يقظان » لابن طفيل ، ومن مؤلفات ابن رشد التي خصّصها كلها او بعضها لهذه الغاية على ما سيجيء .

ومعنى هذا أنهم في الشرق لم يحسوا الحاجة الملحّة لتأمين حياتهم كما احسها إخوانهم في المغرب ، فعملوا على اظهار ان ما يُعنون به هو فلسفة تتفق والدين الذي يعتقدونه حقاً اي ان المفكرين في الشرق نقصهم الى حدٍّ كبير عامل هام من العوامل التي تدفع المتفلسف للتوفيق بين الدين والفلسفة اول كل شيء .

ذلك بأن اوائل المفكرين — كالكندي مثلا — كانوا يعيشون في عهد المأمون ومن تلاه من الخلفاء العباسيين الذين عُرفوا ، كما قدمنا ، بحرية الفكر وتشجيع المفكرين وحمايتهم ولما جاء المتوكل سنة ٢٣٢ هـ ، واضطهد المتكلمين والفلاسفة وحجر على اصحاب المقالات ، صادف هذا الانقلاب في السياسة العلمية ضعف سلطان العباسيين وظهور دويلات في قلب الدولة الاسلامية وتبع ذلك تفرق العلم وطلابه في مراكز كثيرة تابعة لأمراء يحبون العلم ويشجعون عليه[2]

(١) الاسلام والنصرانية ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) هذا وغيره وغير قليل يمكن الرجوع الى « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجي زيدان ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، و « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي » لسيد أمير علي ص ٢٤٧ — ٢٤٩ الترجمة العربية

ومن هذه الدويلات الدولة الحمدانية بحلب والسامانية ببخاري . كما وقعت السلطة المركزية ببغداد نفسها فترة طويلة في أيدي أسرة بني بويه المعروفين كذلك بتشجيع العلماء وفي كنفهم نبغ مسكويه

وكانت تجزئة الدولة الاسلامية على هذا النحو من صالح الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا يجدون حماة في امراء تلك الدويلات ومن المُثل لهذا الفارابي وسيف الدولة الحمداني كما كان الواحد منهم اذا خشي على نفسه من أمير من الأمراء انتقل الى غيره ومن مثل هذا ابن سينا [1] ويضاف الى ذلك كله أن الدولة العباسية كانت امشاجا من عناصر مختلفة في الدين والجنس والثقافة مما يجعل الفلاسفة أجرأ إذ يجدون وسطاً موافقاً بعض الموافقة [2]

كل تلك العوامل تجعل الفيلسوف الشرقي لا يحس الحاجة الماسة الى التوفيق اول الامر بين الدين والفلسفة ولا لأن يخصص لهذا مؤلفا من مؤلفاته . وعلى عكس هذا كان الحال في المغرب الاسلامي تحت حكم المرابطين اولا والموحدين ثانياً ، في وسط مليء بالجهد وتعصب العامة وكثير من رجال الدين ضد كل احرار الفكر وان كانوا من المتكلمين على مذهب الاشعري ! بل ضد كل عالم له رأي خاص وان كان الغزالي خصم الفلاسفة اللدود ! في وسط يبلغ التعصب فيه ضد الفكر والفلسفة درجة تجعل بعض الامراء يرقمون — ابتغاء مرضاة العامة ورجال الدين — عن كانوا يحمونهم ويشاركونهم سراً في دراسة الفلسفة أحياناً كما وقع لابن باجه وابن رشد ! لا عجب اذاً إن رأينا الفلاسفة في المغرب اسوأ حظاً من إخوانهم في المشرق ، فيخصصون بعض جهودهم للتوفيق بين الدين والفلسفة ، ليأمنوا على أنفسهم ويحببوا الفلسفة للناس بالتدليل على انها والدين من منبع واحد

* * *

والآن ، وقد انتهينا من ماهية الدين والفلسفة ونشأتهما وبيان العلاقة بينهما في خلال العصور ، نكون وصلنا الى المرحلة الاخيرة وهي بيان ما كان من شعور بعض المفكرين الفلاسفة بالحاجة الماسة للتوفيق بين هاتين القوتين وعرض محاولاتهم هذا التوفيق في ايجاز ومبلغ نجاحهم فيما قصدوا اليه

(١) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٥ — ٦ والمستشرق منك — Munk — في كتابه « أمشاج من الفلسفات اليهودية والعربية ص ٣٥٤ » وكارا دي فو — Carra de Vaux في كتابه « ابن سينا » ص ١٣٩ — ١٤٠

(٢) كتاب « نظرية ابن رشد » للمستشرق جوتيي Gauthier ص ١٦٣